مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن الله عز وجل خلق الكائنات كلها لعبادته سبحانه من الإنس والجن والملائكة والحيوان والنبات والجماد، وغيرها من الموجودات. وفطرها سبحانه على توحيده، والاعتراف بألوهيته، والإقرار بفقرها واحتياجها وخضوعها له جل وعلا.

إلا أننا نجد العجب من أمر هذا الكائن البشري من انصرافه وبعده عن العبودية الحقة لله تعالى، وانشغاله بملذات الدنيا وشهواتها. هذا مع فضل الله عز وجل على هذا الإنسان بنعمه الكثيرة التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. كما قال تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كما فضله سبحانه على كثير من مخلوقاته. فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومع ذلك فقد كان الإنسان في مجموعة أقل عبودية لله عز وجل وأكثر معصية له وجحوداً به سبحانه واستكباراً منها على مقام العبودية، فذم الله تعالى الإنسان على كفره فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس: ١٧].

وفي المقابل لهذا الكائن البشري، نجد كائنات أخرى من حيوانية ونباتية وجمادية وغيرها، تقوم بعبوديتها نحو خالقها وتتقرب إليه سبحانه بعبادات من التسبيح والسجود والصلاة والدعاء والخوف والقُنُوت والاستغفار وغيرها.

فعجباً من هذا الإنسان الذي وصل كفر بعضه إلى أن زعم أن الله ولداً وشريكاً.

وكان رد فعل الكائنات الأخرى من السماوات والأرض والجبال عظيما إذ أدركت عظم هذه الفرية وكادت تنفطر منها كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١].

ولقد استوقفني هذا الأمر، فكان دافعاً لي للكتابة فيه حيث شَعُرْتُ أن تلك الكائنات أشد خشية لله جل وعلا من كثير من الإنس الذين يسمعون هذا الإد المُفْتَرَى ليل نهار ويعيشون بين ظهراني قائليه ولا تهتز لهم جارحة بخلاف الكائنات غير البشرية.

ثم تتبعتُ آيات أخرى تتحدث عن الكائنات الجمادية والنباتية والحيوانية وغيرها. فوجدتها تعبد الله عز وجل فأخذت أجمع تلك النصوص من الكتاب الكريم والسُّنَّة الصحيحة، فوجدتها تدل على عبودية جميع الكائنات لله تعالى. ووجدت كلام العلماء في توجيه معاني تلك النصوص مختلفاً بين من يقول بعبودية الاختيار، ومن يقول بعبودية الجبر والاضطرار والتسخير، فأردتُ أن أبين وجه الصواب في هذا مؤيداً بالنصوص الشرعية.

وكان من الأسباب التي دفعتني للكتابة في هذا الموضوع أنه غلب على البشر في عصرنا هذا تَفَشِّي الإلحاد وانتشار إنكار وجود الله تعالى بين صفوف المسلمين متخذين الدعوة المادية منهجهم وعقيدتهم، وينظرون إلى الإسلام وأهله نظرة استخفاف وازدراء غافلين عن آيات الله عز وجل الكونية والتنزيلية . فأردت أن أبين لهؤلاء وأمثالهم أن الكائنات كلها تدعو إلى الإيمان بالله تعالى لا إلى الكفر به وإنكار وجوده.

بل إن كثيراً من الكائنات غير البشرية أكثر عبودية لله تعالى من كثير من الكائن البشري، ولذلك نَعَى الله تعالى على من جحد وكفر به سبحانه من هذا الكائن البشري .فقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقال: ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾ [الفرقان:٤٤].

فلعل في ذلك عودة لمن لا يزال على مقربة من الجادة وتنازعه نفسه بين الإيمان والإلحاد. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) ﴾ [ق: ٣٧].

ولقد حرصت على البعد عن الخلافات الجدلية – قدر الإمكان – لإبراز الغاية من موضوع الكتاب وهي عبودية الكائنات لرب العالمين، دون التعرض للخلافات والمشكلات التي تُخْرِج الكتاب عن مضمونه الأساسي، وتُبْعِد القارئ عن تلك الغاية.

فمثلا : عند الكلام عن عبودية الأرض وعبودية الشمس والقمر، حاولت إبراز عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم له سبحانه دون التعرض لكروية الأرض ودورانها وثبوتها، ولا عن دوران الشمس ولا عن إمكانية الوصول إلى القمر ولا الكلام عن أوصافها وأحجامها ومسافاتها وأبعادها إلى غير ذلك من الأمور التي لستُ مُتَخَصِّصًا فيها للكلام عنها من جهة، وكذا مضمون الكتاب لا يستدعيها من جهة أخرى.

هذا وقد التزمت قدر المستطاع بنقل الأحاديث الصحيحة. وهو ما جعلني أستبعدُ بعض الكائنات كالضَّبِّ والغنم وغيرها حيث إن حديث الضب ضعفه البعض كالحافظ ابن حجر الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وكالحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية». كما استبعدت الأحاديث التي لها علاقة بالكائنات المذكورة آنفا ولكنها ضعيفة ولم تصل إلى درجة الصحة مكتفياً بما ذكر عنها بالأدلة الصحيحة. وقد كانت المراجع متوفرة ولله الحمد.

إلا أن ثمة صعوبات واجهتني أثناء الكتابة منها:

١ - أن بعض نصوص الكتاب المقدس - عندهم - مما في العهد القديم أو العهد الجديد والتي يستدل بها بعض الكتاب، كنت أحاول الرجوع إلى الأصل لإثباتها. وكانت لدي نسخة إنكليزية أراجع منها، فكنت أجد صعوبة في فهم الكثير منها حيث إن اللغة الإنكليزية التي كتبت بها قديمة، ويصعب على ناطقي الإنكليزية أنفسهم فهمها؛ لذا فإنهم يرجعون إلى القواميس لتيسير الفهم أو تقريبه وهو ماواجهته بنفسي ولكن كان الحمل أكثر، إلى أن حصلت على نسخة عربية من الدكتور الفاضل: عبد الشكور محمد أمان العروسي، فساعدتني كثيراً في الرجوع إلى أصل النصوص.

٢ - وثمة صعوبة أخرى تمثلت في تحديد أماكن بعض النصوص حيث إن بعض الكُتَّاب لا يثبتون مكانها في العهد القديم أو الجديد أحياناً، فمنها الصلاة الخاصة بالنصارى، فقد ذكره الدكتور/ أحمد شلبي ولم يحدد موضعه في الأناجيل.

وكذا ذكر أن بولس كان يجتهد برأيه في كثير من المسائل أو بشرح ما قاله عيسى عليه السلام، فأخذتُ أبحث عن نصوص تفيد ما ذهب إليه الدكتور/ أحمد شلبي، وبعد صعوبة وجدت شيئًا عن ذلك وأثبتّه في موضعه [١].

---

(١) سيأتي في المبحث الثاني: العبادات عند النصارى، من الفصل الرابع من الكتاب.

٣ - مبحث طريق النجاة الذي يبحث عن الحلول العملية وطريق خلاص المسلمين مما هم فيه من البعد عن العبودية الحقة لله جل وعلا، فقد واجهت صعوبات جَمَّة في إيجاد حل يكون له تطبيق في الواقع الخارجي حيث وجدتُ أنَّ كثيراً من الكُتَّاب المسلمين ممن لا نطعن في نياتهم قد وضعوا حلولاً تصطدم في تطبيقها مع الواقع الخارجي. أو حلولاً لا يمكن تطبيقها إلا في عالم الخيال.

هذا وقد استعنتُ بالله عزَّ وجل في هذا وغيره، ثم بمشورة العديد من الشيوخ الأفاضل الذين وجدوا هُم كذلك الأمر عسيراً وصعباً بل وصفه بعضهم بأنه متعذر للغاية. إلى أن توصلت ولله الحمد والمنة إلى ما دونته في حث العلماء والدعاة والمصلحين على الالتزام أولا بالعبودية الحقة لله جل وعلا حيث كثر فيهم العلم، وعم فيهم عدم العمل به. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف: ٢، ٣].

وقد عملت جاهداً على تجميع عبودية كل ما هو كائن مما ذكر في النصوص الشرعية من الكتاب الكريم والسُّنَّة الصحيحة، وتكلمت عن كل منها على حدة مع تصنيفها وتقسيمها مما هو في عالم الغيب وعالم الشهادة.

هـــذا .. والله تعالى أسأل أن يأجرني على عملي هذا، وأن يكون خالصاً لوجهه عز وجل لا حظ للشيطان فيه. إنه نعم المولى ونعم النصير وخير من سُئِلَ، وحسبي فيه أني أتجه إلى كل من يخشى الله تعالى ويتقيه إلى الرجوع إلى العبودية الحقة لله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

فريد إسماعيل القوني

مكة المكرمة